

في تاريخ الأدب العربي

## كليلة ودمنة

للأستاذ عبد الله محمود اسماعيل

لست أزعم أن أدلة هذا البحث - على قوتها - مما لا يستطاع نقضه أو إضعافه . ولست أزعم أن موضوع البحث مما لم يسبق لبعض الأقلام تناوله . ولكن الذي أستطيع زعمه أن أكثر ما سأعتمد عليه في تدعيم وجهتي طريف مبتكر لا يشينه سطو ولا تفكره إغارة

وقد يكون مرجع الفضل في إثارة هذا البحث إلى رسالة صغيرة كتبها عن ابن المقفع الزميل « الأستاذ محمد قاييل » ذهب فيها مذهب بعض المستشرقين من القول بأن نسبة كتاب كليلة ودمنة إلى غير عبد الله بن المقفع يعوزها الدليل القوي ، وأن الكتاب في مجموعته لا يخرج عن حكايات وضعها ابن المقفع أو نقلها عن الآداب الدخيلة<sup>(١)</sup> . يريد بذلك ألا يجعل للكتاب أصلاً في الفارسية أو الهندية بهذا الاسم ، وهو يؤيد اختياره هذا بما يلى في الكتاب من بلاغة عبارة ، وقوة أداء ، وخلو من المسحة الدخيلة ، مما لا يثبأ لكتاب مترجم حرص فيه على الأمانة ؛ وبأن مؤرخي المنود وعلماء أوربا يجهلون كتاباً بهذا العنوان والتبويب في الهندية ، كما يجهلون شخصي « بيدبا » و « دبشليم » وكلا الدليلين ساقط ، لأن هذه القوة البلاغية في الترجمة ، وسبك الألفاظ وفق أرجح أساليب العربية ليس مما يستغرب من ابن المقفع وقد كان في نهاية الفصاحة والبلاغة مضطماً باللغتين - العربية والفارسية - فصيحاً بهما<sup>(٢)</sup> »

وما لنا نذهب بعيداً وفي المكتبة العربية الآن كتب مترجمة عن الفرنسية والإنجليزية والألمانية أتت ، على الرغم من سحر بيانها وشريف أسلوبها ، أمينة على الأصل ، حريصة على روح المؤلف ، وهذه قصة البائسين لحافظ بك . ورفائيل وقرتر للأستاذ الزيات ، فقد جاءت مع الأصل كالحسناء وخيالها في المرأة . وتلك حالة لا يجد

فيها الترجمة كبير عناء متى كان متمكناً من لغة النقول عنه والنقول إليه ، خبيراً بأدائها ، وطرائق الحسن فيها . كما كان الشأن مع ابن المقفع

على أنني لا أرى هناك ما يحمل على التمسك بالحرفية والأمانة في ترجمة مثل كتاب كليلة ودمنة ، فليس هو بالكتاب العلمي الخطير ، ولا القصة الفنية التي يذهب التصرف فيها شيئاً من جلالها وروعها ، وهو في النهاية لا يعدو أن يكون كتاب تخريف وسمر للخواص وأرباب البيان على الرغم من هذه الطنطنة التي ملأت صدر الكتاب . ولا شك أن ابن المقفع كان يفهم هذا فأباح لنفسه بعض التصرف في الأصل فرفع بذلك عن قلمه كثيراً من الحرج والهييب

أما ما يقال عن جهل مؤرخي المنود وعلماء أوربا بدبشليم وبيديا ، وبكتاب له هذا الاسم والتبويب في اللسان الهندي ، فلا يمكن أن يتخذ منه دليل قاطع على وضع ابن المقفع للكتاب ، فإن صلاحيته للنقول بهذا أضعف من صلاحيته للنقول بأن الفرس<sup>٥</sup> وضعة الكتاب ، فقد نقل هذا الرأي أحد مؤرخي القرن الرابع الهجري ؛ قال محمد بن اسحاق النديم : « فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في أمره ، فقيل عملته الهند ، وقيل عملته ملو الأسكانية<sup>(١)</sup> ونحلته الهند ، وقيل عملته الفرس ونحلته الهند وقال قوم إن الذي عمله بزرجهر الحكيم<sup>(٢)</sup> » الفارسي . على ح . لم أعثر في الكثير الذي قرأته من المراجع القديمة على من يصرح بأن ابن المقفع هو واضع الكتاب

وإن هذا التأييد التاريخي للنقول الثاني مع ما ذكروا من أن المراجع الهندية والأوربية تجهل وجود كتاب كليلة ودمنة في السنسكريتية ، كما تجهل وجود ملك يسمى دبشليم ليجملي أميل إلى الأخذ به وترجيحه على ما سواه . ولن يضعف منه تأريخ السعودي لدبشليم الملك ضمن من ذكر من ملوك الهند الأقدمين وقوله إنه الواضع لكتاب كليلة ودمنة ، فإن جل ما كتبه عن هذه العصور القديمة لا يخرج عن دائرة الجمع الذي لا يقوم على أساس صحيح من التحقيق والتحرى ، وبكفي لصدك عن التعويل

(١) الأسكانية : الطائفة الثانية من ملوك الفرس الأوائل من أفريدون إلى دارا بن دارا . مروج الذهب أول ص ١٢٩ مطبعة عبد الرحمن محمد

(٢) الفهرس ص ٢٣ ؛

(١) ابن المقفع لقاييل ص -

(٢) الفهرس لابن النديم ص ١٧٢ ، طبعة المكتبة الجبارية

على ما كتب أن تعرف أنه جمل ملك « دستلم » أو « دبشليم »  
مائة وعشرين سنة<sup>(١)</sup>؛ وأن ما ذكره بعد ذلك عنه وعن «فور»  
سابقه لا يتجاوز ما ذكر في مقدمات كلیلة ودمنة؛ الأمر الذي  
يحملنا على الظن بأن السعدي ما عرف هذين الاسمين إلا عن  
طريق هذا الكتاب

وليس يبعد على الفرس وضع كتاب كلیلة ودمنة وإلباسه  
هذا الثوب الهندي، فهم جيران الهنود وإخوانهم في جنسيتهم  
الآرية، بشر كونهم في ذكائهم وتمقلهم وخيالهم « وهم أول من  
صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزانة، وجعل بعض  
ذلك على ألسنة الحيوان<sup>(٢)</sup> »

ولا محل للاعتراض هنا بأن الكتاب لو كان من عمل الفرس  
لنضمن شيئاً من المجوسية والمذاهب الفارسية الأخرى؛ لأنه  
لم يوضع لتدوين عقيدة أو إذاعة مذهب ديني خاص؛ وهذا كتاب  
« مزدك » الذي نقله عن الفارسية ابن المقفع وأبان بن عبد الحميد،  
« فإن أول ما يتبادر إلى الذهن أن الكتاب يبحث عن مذهب  
مزدك، ولكن الأستاذ « براون » ذكر في كتابه « تاريخ آداب  
الفرس » نقلاً عن « نولدكي »: أنه كتاب أدب وضع للتسلية،  
يعد في مصاف كتاب كلیلة ودمنة ولا تضر قراءته مسلماً<sup>(٣)</sup> »  
على أننا لو سلمنا باحتواء الأصل على شيء من هذه المذاهب  
لفارسية، فإننا نرجح نقاء الترجمة العربية منها إلى ما ذكرنا من  
صرف ابن المقفع، ولعل الذي حمله على هذه التصفية عقيدته  
الإسلامية الجديدة أو خوفه من تشكك المنصور فيه إن سمحنا  
لأنفسنا بالظن في صدق إسلامه

وإن مما يكاد يحملنا على الجزم بأن ابن المقفع ناقل لكلیلة ودمنة  
لا واضح له ما ذكره صاحب الفهرس من أن جماعة من القلة عن  
اللسان الفارسي — وفيهم من عاصر ابن المقفع أو قارب وقته —  
قاموا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية. قال العلامة جورجي  
زيدان: « يظهر أن بعض الأدباء حسد ابن المقفع على شهرة  
الكتاب فأعادوا نقله، واشتغل بعضهم بنظمه، وتصدى آخرون  
لمعارضته<sup>(٤)</sup> ». ولا غير هذا يفسر لنا سر الاختلاف الذي ذكره

(١) مروج الذهب أول من ٤٨

(٢) الفهرس من ٤٢٢

(٣) ابن المقفع تحليل مردم بك من ٦١

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ من ١٢١

ابن النديم في عدد أبواب الكتاب، فقد قال: « هو سبعة عشر  
باباً، وقيل ثمانية عشر، ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين<sup>(١)</sup> »  
وكان أقدم من نقل الكتاب إلى العربية نظراً أبو سهل  
الفضل بن نوبخت الفارسي من خدم المنصور ومن العاملين في  
خزانة الحكمة لهارون الرشيد. وقد كان معوله في علمه على كتب  
الفرس<sup>(٢)</sup> « ثم عبد الله بن هلال الأهوازي، نقله ليحيى بن خالد  
البرمكي في خلافة المهدي سنة ١٦٥ هجرية، ثم أبان بن عبد الحميد  
اللاحق، قال محمد بن اسحق « وقد نقل من كتب الفرس  
وغيرها ما أنا ذاكره: كتاب كلیلة ودمنة، كتاب السندباد،  
كتاب مزدك<sup>(٣)</sup>... » وقد كان أبان هذا « صديقاً للبرامكة،  
متصلاً بهم أشد اتصال... وكان أدبهم الرسمي » ومن  
المختصين بالرشيد. ويظهر أن نقله الشمري — على جدته — كان  
على جانب من الجودة فقد « أعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف  
دينار وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئاً  
وقال: ألا بكفيك أن أحفظه فأكون راويك<sup>(٤)</sup> ١٢ »

ولو قدرت الحياة لهذه التراجم الأخرى أو لبعضها لقطعت  
الشك باليقين، ولوضعت بين أيدينا الدليل المادي على أن موقف  
ابن المقفع من الكتاب لم يكن إلا موقف الترجمة البليغ والمهذب  
البصير؛ أما وقد نالها من عوادي الزمان وتقلب الأحداث  
ما أودعها عالم الفناء فليس لنا إلا الاعتماد على دراسة ما بقي مما كتبه  
عنها الفقهاء من رجال الأدب والتاريخ، وما اقتبسته كتبهم عن  
بعض هذه التراجم، وفي هذا وذاك كثير من الفناء والمزاء

ولئن ذكرنا بالفضل صاحب الفهرس لما أفادنا في هذا المقام  
فلا يسعنا إلا أن نذكر بعز يد الإعجاب فضل إبراهيم الصولي،  
قد نقل لنا في كتابه الأوراق<sup>(٥)</sup> ستة وسبعين بيتاً من ترجمة  
أبان النظرية، ولولاه ما بقي لنا منها إلا الأبيات الأربعة التي  
ذكرها أبو الفرج<sup>(٦)</sup> وهي لا تنفي في البحث شيئاً

(١) الفهرس من ٤٢٤

(٢) الفهرس من ٣٨٢

(٣) الفهرس من ٢٣٢

(٤) بتصرف عن عصر المأمون أول من ٢٤٩ وثان من ٣١٧

(٥) طبع منه قسماً يبدأ أولها بترجمة أبان ويختمها بالآيات المذكورة.

ومخطوطه بدار الكتب تحت رقم ٥٩٤ تاريخ

(٦) الأغاني ج ٢٠ من ٧٣

الأهل والإخوان والأعوان  
 والمال هادي الرأي والمروءة  
 والمال فيه المز والجمال  
 وربما دعا الفقير فقره  
 فيخسر الدين كما كان خسر  
 وليس من شيء يكون مدحا  
 على الفقير ويكون ذما  
 فإن يكن نجداً يقولوا أهوج  
 وهو إذا كان جواداً سيداً  
 أو يك ذا حلم يُقل ضعيف  
 أو يك بساماً يُقل سخيف

\*\*\*

وقد يظن كثير من الأدباء أن ابن المقفع عرف كيف يخلد اسمه باختياره ترجمة كتاب كليله ودمته أو ادعائه ذلك ؛ ولكن الذي لا يتطرق إليه الاحتمال عندي أن كتاب كليله ودمته إنما كتب له الخلود ، وبقي على توالي الأحداث والأيام لأن عبد الله ابن المقفع تصدى لترجته فألبسه هذا الثوب الرائق من بلاغته وتهذيبه ومعرفته . ولقد يدعش أصحاب ذلك الظن إذا قلنا لهم إن الكتاب لم يكن له في الفارسية من الخطر ما صار له بعد نقله إلى العربية على يد ابن المقفع ، ولكن دهشم سيتبدد متى عرفوا أن الفرس أنفسهم حينئذ رأوا الكتاب في صورته الجديدة المنسجماً استولى عليهم الإعجاب ، وأخذوا يبلاغته فنقلوه إلى الفارسية مرة أخرى ، وأهلوا أصوله التي بين أيديهم فأذهبها النسيان ؛ حتى لقد ذكر ابن النديم أنهم نقلوه « إلى اللغة الفارسية بالعربية<sup>(١)</sup> » ليتمكن من يتكلم الفارسية ولا يكتبها من قراءته بالحروف العربية التي سرى استمالها بينهم

وإني لأسائل نفسي الآن عن المصير الذي كان ينتهي إليه كليله ودمته لو لم يكن عبد الله بن المقفع ضمن من ترجموه !! إنه ولا شك مصير مظالم ؛ أو قل هو المصير الذي انتهت إليه التراجم والنقول الأخرى

(أسوط)

عبد الله محمود اسماعيل

وفي هذه الطائفة التي ذكرها الصولي من المنظومة دليل آخر على أن أبان استقى من مصدر فارسي ، وأنه لم يعتمد على نسخة ابن المقفع ، إذ لم يقع له من عباراتها إلا ما جاء وليد المصادفة أو الاستماتة وهو نادر ، كما يلاحظ على منظومته قلة تداخل حكاياتها والاقتصاد في سوق الحكم ، وربما ذكر الشيء في غير الباب الذي وضعه فيه ابن المقفع

ابتداءً أبان نظمه بالبيت المعروف : -

هذا كتاب كذب ومحنة وهو الذي يدعى كليله ودمته  
 ثم ذكر في الأبيات الأربعة التي تليه أن الكتاب من عمل الهند ، وصفوا فيه الأداب على السنة البهائم ، ليشتى للسخفاء هزله ، ويعرف الحكماء فضله : -

وهو على ذلك يسير الحفظ لَدَتْ على اللسان عند اللفظ  
 ثم أتى الصولي بعد ذلك بابتين وعشرين بيتاً يبدو أنها ليست من هذا التمهيد الذي وضعه أبان ؛ وإنما هي من باب برزويه تبدأ عند مناجاة هذا الحكيم نفسه بقوله : « يانفس<sup>(١)</sup> أما تعرفين نفكك من ضرك ؟ ! ألا تنتهين عن تمنى ما لا يناله أحد إلا قل انتفاعه ... » وفيها يحدث نفسه بأن الدنيا بما لنا فيها من أحواء وأصدقاء كثيرة الآلام ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يعرض نفسه للفلاك في سبيل جمع ما يرضى به أهله ومحبيه ؛ وأن في النسك وترك الدنيا لمن يشق بها النجاة من الشرور . وختم أبان الأبيات بالاقرار بالوحدانية وأنه مهتم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ؛ ثم اقتبس الصولي من باب الأسد والثور تسعة وأربعين بيتاً في مواطن مختلفة من الباب ذكر فيها طرفاً من الحديث الذي دار بين كليله ودمته حول التقرب من الملك ثم كيد دمنة للثور عند الأسد ؛ ثم تحدث عن المال وما فيه من عز وجمال ، وامتدح العقل ومشورة غير أهل الهمة

ولسكي يتضح بعد المنظومة عن ترجمة ابن المقفع نلت النظر إلى أن حديث المال الذي ذكره أبان في باب الأسد والثور جملة عبد الله في باب الحماة المطوقة . وإليك الأبيات التي ذكرها في هذا الموضوع لتتحقق بعد الموازنة من صدق ما ارتأينا من البائية بين الترجمتين :

(١) كليله ودمته ، ترجمة ابن المقفع من ٧٦ طعة وزارة المعارف الخامسة عشرة